جابر المعايرجى

تعلمت الماركسية على يدى لاعب سيرك.
جابر المعايرجى «فى حوارى معه»

القصة غريبة ولابد أن تحكى، ففى بدايات القرن الماضى، كانت مصر تمتلك سيركا شهيرا ورائعا اسمه «سيرك عمار» وكان السيرك يتجول برجاله وبناته وحيواناته والأخشاب التى تتكون منها مبانيه بين مختلف مدن مصر، وأيضا البلدان المحيطة، وفى جولة عالمية سافر السيرك إلى فلسطين فالشام فتركيا ثم إلى روسيا القيصرية، وبينما هم هناك اشتعلت الحرب العالمية الأولى فحوصروا هناك، وتجولوا فى أنحاءروسيا ليزرعوا هناك فنون وتقاليد السيرك التى ترسخت فأنجبت الإبداع الروسى فى فنون السيرك، ومع لاعبى السيرك كان هناك فتى خفيف الحركة وخفيف الظل لماح فى التقاط الحركات اسمه «عمر» وأثناء فترة طويلة قضاها السيرك فى الأقاليم الإسلامية فى روسيا أطلقوا عليهم عمروف، وعندما اندلعت ثورة أكتوبر ١٩١٧ شارك فيها بحماس شديد حتى أصبح كادرا سياسيا فى الحزب البلشفى وتزوج من راقصة باليه شهيرة وبقى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، كبر السن انتزعه من السيرك، وأخيرا عاد إلى مدينة الإسكندرية، وافتتح محل مكوجى، الرجل الثرثار والذى لا يكف عن الحكايات كان يجلس على عتبة محله ليحكى للأصدقاء والزبائن قصصا تشبه الخرافات عن الاتحاد السوفيتى وكيف أقام صروح الصناعة وكيف هزم النازى وبطولات ستالينجراد، يكوى طول النهار ويتحدث وهو يكوى والناس تلتف حوله مليئة بالإعجاب، وتحولت المجموعة إلى ما يشبه التنظيم، والتقت بشكل هامشى مع الموجة الماركسية الجديدة فى الإسكندرية ومع بداية توزيع المنشورات الشيوعية فى الإسكندرية تصور الأمن أنه «عمروف» فقبضوا عليه، وظل يروى حكاياته للنزلاء فى سجن الحدرة.

وكان هناك فتى اسكندراني يتفجر ثورية وفى عام ١٩٤٦ شارك فى المظاهرات وقبض عليه وفى سجن الحدرة لقنه عمروف مفردات الحلم الماركسى هو جابر المعايرجى، لكننا يتعين أن نعود إلى البداية ففى عام ١٩٤٢ كان فى الخامسة عشرة من عمره وكانت الإسكندرية تموج غضبا بسبب الوجود الإنجليزى المكثف هناك وفيما كان روميل فى العلمين مستعدا لدخول الإسكندرية تحركت المجموعة السرية المسماة «الفدائيون» والتى أسسها أحمد مصطفى وجابر وغيرهما لمحاربة الإنجليز، وزعوا منشورات كثيرة، ثم بدأوا فى اصطياد الجنود الإنجليز وضربهم حتى الموت ثم قنابل ومسدسات وتفجرت قنابلهم فى كلية فيكتوريا التى تحولت إلى معسكر للقوات الإنجليزية ثم فى المعهد البريطانى ثم النادى البريطانى فى محطة الرمل، وانضموا إلى مصر الفتاة لكنهم ظلوا محتفظين بتنظيمهم السرى، وفى ٤ مارس ١٩٤٦ وفى معركة محطة الرمل أصيب برصاصتين واحدة فى رأسه وأخرى فى رجله وعندما شفى سيق إلى سجن الحدرة حيث التقى بعمروف، وعندما أفرج عنه التقى بطالب طب هو عثمان طلبة الذى سلمه لطالب طب آخر هو حمزة البسيونى، وفى ٥ أبريل كان إضراب ضباط البوليس ونظمت «حدتو» مسيرات كبيرة دعما لهم، الجماهير تحمل ضباط بوليس وضباط البوليس يحملون شيوعيين والجميع يهتفون «الخبز والحرية للشعب» و«يسقط الملك»، النار أطلقت عليهم بكثافة سقط ١٤ شهيدا وقبض عليه، واستمر «جابر» مناضلا لا يهدأ وفى عام ١٩٥٤ كلف بإعادة بناء قسم الرمل، أعطوه عنوانا فى شارع إدفو، هو منزل الشيوعى العجوز د. حسونة وكان فى السجن. الموعد بعد منتصف الليل، دق الباب استقبله حسين الابن الصغير والابنة زهيرة، والأم، وبعد قليل دق الباب ودخل الأمن همست زهيرة فى أذنه قول إنك خطيبى «بعدها قالت له إنها قرأت هذه الحيلة فى رواية فرنسية عن إحدى بطلات المقاومة المسلحة للنازى»، وانتهى التفتيش بالقبض عليهم جميعا ولفترة تالية كان الأب والأم والابنة والخطيب الوهمى والابن جميعا فى السجن، وبعد الإفراج سألها هل يمكن أن نجعل هذه الكذبة حقيقة؟ وتزوجا، هى كانت مسئولة العمل النسائى فى حدتو، وهى وأمها تنظمان زوجات وبنات المعتقلين فى مظاهرات صاخبة. لكننا بهذا نقفز على واحدة من أهم مراحل نضاله، ففى عام ١٩٥١ أرسلته حدتو إلى الإسماعيلية ليشارك فى معارك الفدائيين معتمدا على خبرته فى قتال الانجليز فى شوارع الإسكندرية، ثم تحترق القاهرة وتكون ثورة يوليو.. ويقبض عليه من جديد ليفرج عنه عام ١٩٥٤.

ورغم الضربات البوليسية المريرة استمر النشاط، وتشكلت لجنة منطقة من جابر وعلى نجيب ومحمد بسيونى ومحمد عويضة وزهيرة، وكان المسئول المركزى صلاح حافظ وتولى جابر مسئولية قسم كفر الدوار، وفى هذه الأثناء جند موظفا بإحدى القنصليات كانت مهمته الطباعة على الرونيو فطبع كل نشرات ومنشورات حدتو بأمان تام، ونشط العمل الجبهوى بالإسكندرية رغم كل هجمات الأمن، ورتبت الجبهة ذهاب النحاس لصلاة الجمعة فى مسجد أبوالعباس حيث اشتعلت مظاهرة ضخمة انتهت بتحديد إقامة النحاس والقبض على كثيرين ومنهم المسجون الدائم جابر، وإذ يفرج عنه يساومه الأمن أين يخبئ الرونيو والأرشيف الخاص بحدتو، ويرفض الإجابة فيرسل إلى معتقل المنيا، وأسأله كيف حافظت على هذا المخبأ طوال سنوات عديدة دون أن يصل إليه الأمن؟ فيقول كان معنا رفيق نوبى اسمه عبده عمران ومنعته من أى اتصالات حزبية وكان يعمل سفرجيا فى قصر المليونير سلفاجو «الابن» وفى قبو القصر كان المخزن، ويتم كل شىء أثناء السهرات الصاخبة التى لا تنقطع، والقبو هو المملكة الخاصة لعم عبده السفرجى، ومن المفارقات الغريبة أن هذا القصر أصبح فيما بعد مقرا لمباحث أمن الدولة بالإسكندرية، ويمضى جابر من سجن إلى سجن ويفرج عنه ١٩٥٦ ليقبض عليه من جديد فى ١٩٥٩ ليخرج مع الدفعات الأخيرة من المعتقلين.. وعندما يتأسس التجمع يكون فى الإسكندرية مع أوائل المؤسسين، ويظل كما كان صلبا ولا يهدأ حتى يرحل.